قول الله تبارك وتعالى :((**لإِيلَفِ قُرَيْشٍ . إِيلَفِهِمْ رِحْلَـةَ الشِّـتَآءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُـوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خوْفٍ**)) هذه السورة لها صلة بالسورة الـتي قبلهـا، إذ أن السورة التي قبلها فيها بيان منة الله عز وجل علـى أهـل مكـة بمـا فعل بأصحاب الفيل الذين قصدوا مكة لهدم الكعبة، فبيّن الله في هذه السورة نعمة أخرى كبيرة على أهل مكـة، علـى قريـش وهـو إيلا فهـم مرتين في السنة، مرة في الصيف ومرة فـي الشـتاء، والإيلاف بمعنـى الجمع والضم، ويراد به التجارة التي كانوا يقومون بها مرة في الشتاء، ومرة في الصيف، أما فـي الشـتاء فيتجهـون نحـو اليمـن للمحصـولات الزراعية فيه، ولأن الجو مناسب، وأما في الصيف فيتجهون إلى الشـام لأن غالب تجارة الفواكه وغيرها تكون في هذا الوقت فـي الصـيف مـع مناسبة الجو البارد، فهي نعمة من الله سبحانه وتعالى على قريش في هاتين الرحلتين؛ **الرحلة الأولى**: رحلة الشتاء، في أي وقت؟ فـي أي جهة؟ في اليمن، **والثانية**: رحلة الصيف في جهة؟ الشام. لما ذكرهم بهذه النعمة، وهي نعمة عظيمة، لأنه يحصل منها فوائد كثيرة ومكاسب كبيرة من هذه التجارة، أمرهم الله عز وجل أن يعبـدوا رب الـبيت عـز وجل قال: ((**فليعبدوا رب هذا البيت**)) شكراً له على هذه النعمة، والفـاء هـذه إمـا أن تكـون فـاء السـببية، أي فبسـبب هـاتين الرحلـتين ليعبدوا رب هذا البيت، أو تكون فاء التفريع، وأيًّا كان فهـي مبنيـة علـى مـا سـبق، أي فبهـذه النعـم العظيمـة فيجـب عليهـم أن يعبـدوا اللـه، والعبادة هي التذلل لله عز وجل محبة وتعظيماً، أن يتعبد الإنسـان للـه يتذلل له بالسمع والطاعة، فإذا بلغه عن الله ورسوله أمر قال: سـمعنا وأطعنا، وإذا بلغه خبر قال: سمعنا وآمنا، على وجـه المحبـة والتعظيـم، فبالمحبة يقوم الإنسان بفعل الأوامر، وبـالتعظيم يـترك النـواهي خوفـاً من هذا العظيم عز وجل، هذا معنى من معاني العبادة، وتطلق العبـادة على نفس المتعبد به، وقد حدّها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللـه ــ بهذا المعنى فقال: " **إن العبادة اسم جـامع لكـل مـا يحبـه اللـه ويرضاه، من الأقوال، والأعمال الظاهرة، والباطنـة** "، ولهـذا لو سألك سائل: الصلاة ماذا؟ أعبادة أم عادة؟ قل: عبـادة. ولـو سـألك سائل: أنت الآن تصلي فما معنى صـلاتك هـذه؟ فقـل معناهـا: العبـادة لله، نتعبد لله عز وجل، نتذلل له بالسمع والطاعة، وبما أمر أهل العلم. وقوله: ((**رب هذا البيت**)): يعني به الكعبة المعظمـة، وقـد أضـافها

الله تعالى إلى نفسه في قـوله تعـالى: ((**وطهر بيـتي للطـائفين والقائمين والركع السجود**))، وهنـا أضـاف ربـوبيته إليـه: ((**رب هذا البيت**))، وهل هو رب لغيره؟ الجواب: نعم، لكن إضافة الربوبية إليــه علــى ســبيل التشــريف والتعظيــم، طيــب ((**طهــر بيــتي للطائفين**)) أليس كل شيء هو لله؟ للـه ملـك السـماوات والأرض، كل شيء لله، كل شيء ملك لله، لماذا أضاف الله البيت إليه؟ تشريفاً وتعظيماً، إذاً خصصه بالربوبية أي خصص البيت بالربوبية مرة، وأضـافه إلى نفسه مرة أخرى تشريفاً وتعظيماً، في آية ثانيـة: **((إنمـا أمـرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها**)) وبعدها قال: ((**وله كـل شيء**)) احتراز من أن يتوهم واهم بـأنه رب البلـدة وحـدها فقـال: ((**وله كل شيء**)) ، ولكل مقام صـيغة مناسـبة، ففـي قـوله: ((**إنمـا أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شــيء**)). مناسبة بيان عموم ملكه، لئلا يدعي المشركون أنـه رب للبلـدة فقـط، أما هنا فالمقام مقـام تعظيـم للـبيت فناسـب ذكـره وحـده ، ((**الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**)): ((**الـذي**)) هـذه صـفة للـرب أو للـبيت؟ للـرب، إذاً فمحلهـا النصـب، ولهـذا يحسـن أن تقـف فتقول ((**فليعبدوا رب هذا البيت**)) ثم تقول: ((**الذي أطعمهـم**)) لأنك لو وصلت فقلت: ((**رب هذا البيت الذي أطعمهم**)) لظن السامع أن ((**الذي**)) صفة للبيت، وهذا بعيد من المعنـى ولا يسـتقيم به المعنى.((**الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**)): بيـن الله نعمته عليهـم، النعمـة الظـاهرة والباطنـة، فإطعـامهم مـن الجـوع وقاية من الهلاك في أمر باطن، وهو الطعام الذي يأكلونه، ((**وآمنهم من خوف**)) وقاية من الهلاك في الأمر الظـاهر؛ لأن الخـوف ظـاهر، إذا كانت البلاد محوطة بالعدو، خاف أهلها وامتنعوا عن الخـروج، وبقـوا في ملاجئهم، فذكرهم الله بهـذه النعمـة، ((... **أطعمهم مـن جـوع وآمنهم من خوف**)) وآمـن مكـان فـي الأرض هـو مكـة، هـي آمـن مكـان فـي الأرض، ولـذلك لا يُقطـع شـجرها، ولا يُحـش حشيشـها، ولا تُلتقط ساقطتها، ولا يصاد صيدها، ولا يسفك فيها دم، وهـذه الخصـائص لا توجد في البلاد الأخرى حتى المدينة، محرمة ولها حرم، لكـن حرمهـا دون حرم مكة، دون حرم مكة بكثير، حرم مكة لا يمكـن أن يـأتيه أحـد من المسلمين لم يأته ولا مرة إلا محرمـاً، يجـب عليـه ذلـك، والمدينـة ليست كذلك، حـرم مكـة يحـرم حشيشـه وشـجره مطلقـاً، وأمـا حـرم

المدينة فرخص في بعض الشجر لحاجة، للحرث مثلاً، وأما حرم المدينة فرخص في بعض شجره للحرث ونحوه، صيد مكة حرام وفيه الجزاء، وصيد المدينة ليس فيه الجزاء، المهم أن أعظم مكان آمن هو مكة، حتى الأشجار آمنة فيه، وحتى الصيود آمنة فيه، ولولا أن الله تعالى يسر على عباده لكان حتى البهائم قصدي حتى البهائم العامة التي ليست صيوداً تحرم، لكن الله تعالى رحم العباد وأذن لهم أن يذبحوا وينحروا في هذا المكان، وهذه النعمة ذكرهم الله بها في قوله: ((**أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم**))، يعني أفلا يشكرون الله على هذا؟! فهذه السورة كما ترى كلها تذكير لقريش بما أنعم الله عليهم في هذا البيت العظيم، وفي الأمن من الخوف، وفي الإطعام من الجوع، فإذا قال قائل: ما واجب قريش نحو هذه النعمة؟ وكذلك ما واجب من حلّ في مكة الآن من قريش أو غيرهم، قلنا: الواجب الشكر لله تعالى بالقيام بطاعته، بامتثال أمره واجتناب نهيه، ولهذا إذا كثرت المعاصي في الحرم فالخطر على أهله أكثر من الخطر على غيرهم، لأن المعصية في مكان فاضل أعظم من المعصية في مكان مفضول، ولهذا قال الله تعالى: ((**ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم**))، فتوعد الله تعالى من أراد فيه أي من هم به فيه بإلحاد فضلاً عمن ألحد. والواجب على المرء أن يذكر نعمة الله عليه في كل مكان، لا في مكة فحسب، بلادنا ــ ولله الحمد ـ اليوم من آمن بلاد العالم، وهي من أشد بلاد العالم رغداً وعيشاً، أطعمنا الله تعالى من الجوع، وآمننا من الخوف، فعلينا أن نشكر هذه النعمة، وأن نتعاون على البر والتقوى، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى الدعوة إلى الله على بصيرة وتأنٍ وتثبت، وأن نكون إخوة متآلفين، والواجب علينا ولاسيما على طلبة العلم إذا اختلفوا بينهم أن يجلسوا للتشاور، وللمناقشة الهادئة التي يقصد منها الوصول إلى الحق، ومتى تبين الحق للإنسان وجب عليه اتباعه، ولا يجوز أن ينتصر لرأيه؛ لأنه ليس مشرعاً معصوماً حتى يقول إن رأيه هو الصواب، وأن ما عداه هو الخطأ. الواجب على الإنسان المؤمن أن يكون كما أراد الله منه، ((**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً**)) ، أما كون الإنسان ينتصر لرأيه ويصر على ما هو عليه، ولو تبين له أنه باطل فهذا

خطأ، هذا من دأب المشركين الذين أبوا أن يتبعوا الرسـول وقـالوا: ((**إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتـدون**)). نسـأل الله أن يديم علينا وعليكـم نعمـة الإسـلام، والأمـن فـي الأوطـان، وأن يجعلنا إخوة متآلفين علـى كتـاب اللـه وسـنة رسـوله صـلى اللـه عليـه وعلى آله وسلم.